لطائف القرآن الكريم

عند ابن عاشور جمعاً ودراسة

The Ltaif of the Noble Qur’an according to Ibn Ashour collection and study

أ.د/ أحمد بن سليمان بن صالح الخضير

أستاذ القرآن الكريم وعلومه بجامعة القصيم

. Dr. / Ahmed bin Suleiman bin Saleh Al-Khudair

Professor of the Noble Qur’an and its Sciences at Qassim University

لطائف القرآن الكريم عند ابن عاشور جمعاً ودراسة

أحمد بن سليمان بن صالح الخضير
قسم القرآن الكريم وعلومه – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة القصيم
البريد الإلكتروني : abobasl888@gmail.com

الملخص :

عنوان البحث: لطائف القرآن الكريم عند ابن عاشور جمعاً ودراسة.

اسم الباحث: أحمد بن سليمان بن صالح الخضير.

انتساب الباحث: استاذ القرآن الكريم وعلومه بجامعة القصيم.

أهداف البحث:

١. بيان معنى لطائف القرآن.
٢. إبراز لطائف القرآن عند ابن عاشور.
٣. دراسة الآيات التي نص ابن عاشور في تفسيره على أنها من لطائف القرآن.

منهج البحث: قام الباحث باستقراء لكتب المعاني والتفسير وعلوم القرآن وما كتب حول الآيات الكريمة، ثم قسم البحث إلى تمهيد وفصلين وخاتمة وفهارس.

فكرة البحث: هناك أيات كريمة حكم عليها ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير بأنها من لطائف القرآن، فقام الباحث بتتبعها وجمعها ودراستها، فأضحت هي محور البحث وسياقه.

الكلمات المفتاحية: لطائف – القرآن – ابن عاشور.

The Ltaif of the Noble Qur'an according to Ibn Ashour collection and study

Ahmed bin Suleiman bin Saleh Al-Khudair

Department of the Noble Qur'an and its Sciences - College of Sharia and Islamic Studies

Al Qussaim university

E-mail : abobasl888@gmail.com

Abstract:

The title of the research: The Taif of the Noble Qur'an according to Ibn Ashour, collection and study.

The name of the researcher: Ahmed bin Suleiman bin Saleh Al-Khudair.

Affiliation of the researcher: Professor of the Noble Qur'an and its Sciences at Qassim University.

research aims:

1- Explanation of the meaning of the sects of the Qur'an.

2- Highlighting the denominations of the Qur'an according to Ibn Ashour.

3- Studying the verses that Ibn Ashour stipulated in his interpretation that they are among the delicacies of the Qur'an.

Research Methodology: The researcher extrapolated the books of meanings, interpretation and sciences of the Qur'an and what was written about the noble verses, then the research was divided into an introduction, two chapters, a conclusion and indexes.

Research idea: There are dignified verses that Ibn Ashour judged in his interpretation of Liberation and Enlightenment as being among the subtleties of the Qur'an, so the researcher tracked, collected and studied them, so they became the focus and context of the research.

Keywords: Lataif - the Qur'an - Ibn Ashour.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ... أما بعد:

فتفسير ابن عاشور "التحرير والتنوير" سِفر عظيم، قد تناوله العلماء والباحثون من كل طرف، حتى تعددت الدراسات والكتابات حوله، بل وأقيمت المؤتمرات على دور ابن عاشور وجهوده في الحركة العلمية بشكل عام، وتفسيره بشكل خاص، وقد لفت نظري وأنا أقلب تفسير ابن عاشور حديثه عن لطائف القرآن في مواضع شتى من القرآن الكريم وعلومه، فحاولت جمعها ودراستها لتصبح موضوعاً أكتب من خلاله بحثاً تحت عنوان: "لطائف القرآن الكريم عند ابن عاشور – جمعاً ودراسة"، سائلاً الله التوفيق والإعانة.

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث بوجود عدد غير قليل من الأقوال التفسيرية التي حكم عليها ابن عاشور بأنها من لطائف القرآن الكريم، ولم تحضَ بالجمع والدراسة مع جدارتها بذلك، وهو ما أسعى للقيام به في هذا البحث، محاولاً الإجابة على سؤال رئيس وأولوي، وهو:

ما هي لطائف القرآن الكريم عند ابن عاشور؟.

وهو ما يجيب عن الأسئلة الفرعية التالية:

س١: ما معنى لطائف القرآن؟.

س٢: ما أنواع لطائف القرآن عند ابن عاشور؟ وما دراستها التفصيلية؟.

أهمية الموضوع:

١. تظهر أهمية الموضوع من خلال ارتباطه بالقرآن الكريم وما اشتمل عليه من بيان وتفصيل.

٢. قوة نظر ابن عاشور واستقرائه ودرايته بتفسير الآيات.

٣. أن هذا الموضوع – فيما أعلم – لم يكتب فيه أحد بحثاً مستقلاً أو من ضمن بحوث متنوعة، فهو موضوع جديد يحتاج إلى تتبع وجمع ودراسة.

أهداف الموضوع:

١. بيان معنى لطائف القرآن.
٢. إبراز لطائف القرآن عند ابن عاشور.
٣. دراسة الآيات التي نص ابن عاشور في تفسيره أنها من لطائف القرآن.

الدراسات السابقة:

هناك عدد كبير وهائل وأكثر من أن تحصى من الدراسات والقراءات حول ابن عاشور وكتابه، وبعد تتبعٍ لكثير من هذه الدراسات وجدت أن أقرب هذه الدراسات هي ما يلي:

١ – مبتكرات القرآن عند الطاهر ابن عاشور، دراسة بلاغية، للباحث هاني عبدالله الصاعدي، رسالة ماجستير في جامعة أم القرى في كلية اللغة العربية في عام ١٤٣٤هـ.

٢ – مبتكرات القرآن الكريم عند الطاهر ابن عاشور، دراسة نقدية مقارنة، للباحث عماد طه الراعوش، وهو بحث منشور في مجلة جامعة طيبة للتدريب والعلوم الإنسانية في عام ١٤٣٨هـ.

٣ – مبتكرات القرآن عند ابن عاشور في تفسيره "التحرير والتنوير"، للباحث فادي الرياحنةن وهو بحث منشور في مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والقانونية في عام ١٤٣٥هـ.

٤ – مصطلح مبتتكرات القرآن الكريم عند الطاهر ابن عاشور من خلال تفسيره "التحرير والتنوير" دراسة تحليلية، للباحث محمد فوزي نصير وهو بحث منشور في كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بجامعة

الأزهر، فرع طنطا، عام ١٤٣٨هـ.

٥ – الاستنباطات عند العلامة محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره "التحرير والتنوير" جمعاً ودراسة، للباحث أيمن غازي صابر، وهي رسالة ماجستير في جامعة أم القرى سنة ١٤٣٥هـ.

وبعد النظر في هذه الدراسات واستقراء ما فيها وجدت أنها لم تتعرض لما أقوم بالعمل عليه، وهو جمع لطائف القرآن عند ابن عاشور ودراستها.

فمن هنا برزت القيمة التي ستضيفها هذه الدراسة بإذن الله تعالى والتي تعتبر لبنة علمية في الدراسات العلمية حول الطاهر ابن عاشور وجهوده.

خطة البحث:

تتكون خطة البحث من مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة وفهارس على النحو التالي:

المقدمة: وفيها مشكلة البحث وأهميته وأهدافه والدراسات السابقة وخطة البحث ومنهجه وإجراءاته.

التمهيد: معنى لطائف القرآن.

الفصل الأول: الدراسة النظرية لأنواع لطائف القرآن عند ابن عاشور، وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: لغة القرآن.

المبحث الثاني: بلاغة القرآن.

المبحث الثالث: إعجاز القرآن.

المبحث الرابع: الحقيقة والمجاز.

المبحث الخامس: الاستنباط.

المبحث السادس: إظهار مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم.

الفصل الثاني: الدراسة التطبيقية، وتعنى بدراسة الآيات التي قال عنها ابن

عاشور من لطائف القرآن، مرتبة حسب ترتيب المصحف.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج التي توصلت إليها.

الفهارس: وهي فهارس كاشفة للبحث.

منهج البحث:

سلكت في بحثي المنهج الوصفي في الدراسة النظرية، والمنهج الاستقرائي التحليلي في الدراسة التطبيقية.

إجراءات البحث:

١. عزوت الآيات القرآنية إلى مواضعها في القرآن الكريم ذاكراً اسم السورة ورقم الآية.
٢. التزمت بكتابة الآيات القرآنية بالرسم العثماني.
٣. وثقت القراءات القرآنية من مصادرها الأصلية.
٤. خرجت الأحاديث من مصادرها المعتمدة.
٥. وثقت أقوال الأئمة من مظانها الأصلية.
٦. لم أترجم للأعلام حتى لا أثقل الحواشي.

التمهيد

معنى لطائف القرآن

اللطائف جمع لطيف، يقال: لطف، لطافة، واللطيف من الكلام: ما غمض معناه وخفي.

واللطيف: صفة للعالم بخفايا الأمور ودقائقها، وهو لطيفٌ يلْطُفُ لاستنباط المعاني، واللطيفة من الكلام أيضاً: الرقيقة، جمعها لطائف[(١)].

قال الراغب: "ويعبر باللطافة واللطف عن الحركة الخفيفة وعن تعاطي الأمور الدقيقة، وقد يعبر باللطائف عما لا تدركه الحاسة"[(٢)].

هذا بالنسبة لتعريف اللطائف، أما القرآن فقد تنوعت تعاريف العلماء للقرآن الكريم باختلاف اتجاهاتهم واهتماماتهم، ففريق يهتم بالناحية العقدية، وهو منحى علماء السلف وأئمة السنة، وفريق له اهتمام بالناحية اللفظية، ويمثله علماء اللغة وعلوم القرآن والفقه وأصوله، ولذا سأكتفي بتعريف واحد بغض النظر عن هذين الاتجاهين، وهو تعريف الشوكاني؛ حيث قال: "هو كلام الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم المتلو المتواتر"[(٣)].

وعليه فتعرف لطائف القرآن بأنها: "مفردات قرآنية تحمل معانٍ خفية".

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (٢٤٠/١٣)، لسان العرب (٣٧٧/٩)، تاج العروس (٣٦٦/٢٤)، مادة "ل ط ف".

(٢) انظر: المفردات (ص٧٤٠).

(٣) انظر: إرشاد الفحول (١٧١/١).

الفصل الأول

الدراسة النظرية لأنواع لطائف القرآن الكريم عند ابن عاشور

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول : لغة القرآن

لغة القرآن الكريم هي اللغة العربية، فيها نطق القرآن وتحدث بها رسوله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ ﴾ [يوسف: ٢]، وقال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [طه: ١١٣]، وقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥ ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]، ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾ [فصلت: ٢]، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤].

فالآيات الكريمة واضحة الدلالة على عربية القرآن، ولم يعرف عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يعرف لغة غير اللغة العربية، فقد ولد في قريش، واسترضع في بني سعد ثم عاد إلى قريش.

والقرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين قد بلغ الذروة في الفصاحة والبلاغة، فعبارته أبلغ عبارة، وأسلوبه أرقى أسلوب، وهي كما يقول الراغب: "فألفاظ القرآن الكريم هي لب كلام العرب، وزبدته وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذّاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرّعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب

الثمرة، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة"[١]، ويقول مصطفى الرافعي: "كان طبيعياً أن يكون القرآن بلغة قريش؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرشي، ثم ليكون هذا الكلام زعيمَ اللغات كلها كما استمازت قريش من العرب بجوار البيت، وسقاية الحاج، وعمارةِ المسجد الحرام، وغيرها من خصائصهم؛ وقد ألف العرب أمرهم ذلك واحتملوا عليه وأفردوهم به، فلأن يألفوا مثلَه في كلام الله أؤلى.

وهذه حكمة بالغة في سياسة أولئك الجفاة وتألفهم وضم نشرهم، فإن هذا القرآن لو لم يكن بلسان قريش ما اجتمع له العرب ألبتة ولو كانت بلاغته مما يميت ويحيي"[٢].

وقد جاءت أمثلة ابن عاشور على لطائف القرآن في لغة القرآن في كل من سورة التوبة آية (٩٠)، وسورة ص، آية (٢٥).

المبحث الثاني : بلاغة القرآن الكريم

لقد كان لبلاغة القرآن الكريم أثر كبير على مرّ الأجيال في حفظ اللغة العربية من الاندثار، ونمو علومها، ورقي أدائها، يقول ابن القيم: "وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلا وإجمالا ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة، سواء كانت مبسوطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا وكلما تكرر حلا وعلا لا يخلق عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويشوق إلى

(١) انظر: المفردات (ص٥٥).

(٢) إعجاز القرآن (ص٦٣).

دار السلام ومجاورة عرش الرحمن"[١].

وقال الخطابي: "ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى وجه الإعجاز فيه من جهة البلاغة، لكن صعب عليهم تفصيلها، وصغوا فيه إلى حكم الذوق، وقد حازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل نوع شعبة، فانتظم لها بانتظام هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة"[٢].

وكان لابن عاشور دور في إبراز هذا الجانب في لطائف القرآن فيما يخص بلاغة القرآن في سورة البقرة آية (١٥٥)، وسورة التوبة آية (٤٤)، وسورة الممتحنة آية (١٠).

المبحث الثالث : إعجاز القرآن

ما أرسل الله من نبي ولا رسول إلا جعل له معجزة تدل على صدقه في نبوته، أو رسالته، فتطمئن قلوب الناس بها، وتنشرح صدورهم إليها، ويقبلون عليها فرحين مستبشرين راغبين لا راهبين.

ولولا المعجزة لاختلط الحق بالباطل، ولذلك كان لابد من المعجزات، يجريها الله على يد النبي أو الرسول، ومن أجل هذا ما أرسل الله رسولاً إلا بلغة قومه، وما أرسله إلا بمعجزة تدركها عقولهم وتألفها طباعهم؛ ليكون ذلك أدعى إلى تسليمهم وإيمانهم، ولهذا لما لم تكن العرب أمة مثقفة ذات حضارة، وإنما كانت أمة أمية، ولم تكن تجيد فناً إلا فن البلاغة والبيان اللغوي، والتعبير عن المراد، جاءت معجزة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم معجزة لغوية تتجلى في آيات القرآن الكريم، موافقة لمعارف العرب وثقافتهم،

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/٢٠٠).

(٢) انظر: الإتقان (٢/٣٣٥).

وبدأ الرسول صلى الله عليه وسلم بتلاوة القرآن، فما سمعه واحد فيهم إلا وملك عليه قلبه واستأثر بعقله لما فيه من البلاغة والبيان والجمال والدقة والروعة والإتقان، وهي الأمور التي مارسها العربي وكان قلبه يذوب في معانيها"[١].

وإعجاز القرآن: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به[٢].

قال السيوطي: "ولا خلاف بين العقلاء أن كتاب الله تعالى معجز لم يقدر واحد على معارضته بعد تحديهم بذلك"[٣].

وكان المثال الوحيد في لطائف القرآن عند ابن عاشور في هذا الجانب في سورة الإسراء آية (٩١).

المبحث الرابع : الحقيقة والمجاز

كل ما تعارف عليه البلاغيون من أفانين البلاغة والتصريف في الإسلوب القرآني بالحقيقة والمجاز تارة، وبالتشبيه والاستعارة والكناية تارة أخرى، يصور المفردة أو الجملة القرآنية أعظم تصوير؛ إذ يحمل وقعاً خاصاً مؤثراً عند إيراد ذلك الأسلوب، فيصوره أبلغ تصوير، أكثر مما لو عبر بغيره من الأساليب.

ومن هنا جاءت الأساليب القرآنية متنوعة، وكان فيها ما يسمى بالحقيقة والمجاز، الأكثر جدلاً بين العلماء من حيث الوقوع من عدمه في القرآن.

(١) انظر: المعجزة القرآنية، د.محمد حسن هيتو (ص٣٠).

(٢) انظر: إعجاز القرآن، للباقلاني (ص١٧).

(٣) انظر: الإتقان (٣٢٤/٢).

قال ابن قدامة: "القرآن يشتمل على الحقيقة والمجاز"[١].

وقال الزركشي: "وأما المجاز فاختلف في وقوعه في القرآن، والجمهور على الوقوع، ولو سقط المجاز من القرآن سقط شطر الحسن"[٢].

وقد تنوعت تعاريف العلماء للحقيقة والمجاز، نذكر منها:

قال الآمدي في تعريفه للحقيقة: "اللفظ المستعمل فيما وضع أولاً"[٣].

وعرف الأسنوي المجاز، فقال: "المجاز هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لمناسبة بينهما تسمى العلاقة"[٤].

وقد جاءت الأمثلة على لطائف القرآن في الحقيقة والمجاز عند ابن عاشور في سورة الجمعة آية (٥).

المبحث الخامس : الاستنباط

قد عني العلماء قديماً وحديثاً بالقرآن الكريم عناية فائقة لا قبل لها، كيف وهو كتاب ربهم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد تنوع هذا الجهد في العناية والاهتمام، وبرز ما يسمى الاستنباط، وهو إخراج وإبراز لفظ أو معنى مغفول عنه، هذا بشكل عام، أما فيما يتعلق بالقرآن فهو: "ربط كلام له معنى بمدلول الآية بأي نوع من أنواع الربط"[٥].

وقد كان لابن عاشور دور بارز في الاستنباط من القرآن الكريم، حتى كتب فيه الرسائل والأبحاث، وكان من ضمن الأمثلة التي وقفت عليها وتتحدث عن لطيفة من لطائف القرآن الكريم لها علاقة بالاستنباط هو

(١) روضة الناظر (٢٧٢/١).

(٢) انظر: البرهان (٢٧٢/٢).

(٣) انظر: الإحكام (٥٢/١).

(٤) انظر: التمهيد في تخريج الفروع على الأصول (ص١٨٥).

(٥) مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، للدكتور مساعد الطيار (ص١٦٠-١٦١).

حديثه عن قوله تعالى: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [التوبة: ٦٦].

وقد استنبط ابن عاشور في سورة التوبة آية (٦٦) لطيفة من لطائف القرآن عنده.

المبحث السادس : إظهار مكانة النبي صلى الله عليه وسلم

من يتدبر القرآن الكريم ويتماشى مع منهجه يجد عشرات الآيات التي تشيد بمكانة النبي صلى الله عليه وسلم صراحة، وعظيم قدره عند ربه سبحانه وتعالى، والرفع من شأنه وتفضيله على سائر البشر بمن فيهم الأنبياء عليهم السلام، فلقد كان لهذه الإشارات أعظم الأثر في تكريم النبي صلى الله عليه وسلم وتثبيته لإنجاز مهمته؛ ولهذا نجد أن الله سبحانه وتعالى قد أبرز تكريم النبي صلى الله عليه وسلم في ثنايا القرآن الكريم، وتنوعت بتنوع الحال والمقام، ومن هذا التنوع نجد أن القرآن الكريم قد ذكر صفات الرسول صلى الله عليه وسلم وخصائصه والثناء عليه كوصفه بالعبودية والخلق العظيم، وكونه خاتم النبيين، وورد القسم مقترناً بذكره صلى الله عليه وسلم.

فقال سبحانه: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤]، وقال: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحجر: ٧٢].

وجاء هذا الموضوع في موضع واحد من لطائف القرآن عند ابن عاشور في سورة التوبة آية (٦١).

الفصل الثاني : الدراسة التطبيقية

١ – **قال تعالى:** ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦].

قال ابن عاشور: "وأفيد مضمون الجملة الذي هو حصول الصلوات والرحمة والهدى للصابرين بطريقة التبشير على لسان الرسول تكريما لشأنه، وزيادة في تعلق المؤمنين به بحيث تحصل خيراتهم بواسطته، فلذلك كان من لطائف القرآن إسناد البلوى إلى الله بدون واسطة الرسول، وإسناد البشارة بالخير الآتي من قبل الله إلى الرسول"(١).

الدراسة:

بعد استقراء لكتب التفسير وعلوم القرآن وذات العلاقة بالآية الكريمة لم أجد من أشار إلى هذه اللطيفة من لطائف القرآن حول الآية الكريمة من أهل المعاني والتفسير وعلوم القرآن، ولهذا يحسب لابن عاشور إبراز هذا المعنى الذي انفرد به.

٢ – **قال تعالى:** ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [التوبة: ٤٤].

قال ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ): "ولمّا كان الاستئذان يستلزم شيئين متضادّين، كما قلنا، جاز أن يقال: استأذنت في كذا واستأذنت في ترك كذا. وإنّما يذكر غالبًا مع فعل الاستئذان الأمر الّذي يرغب المستأذن الإذن فيه دون ضدّه وإن كان ذكر كليهما صحيحًا.

(١) التحرير والتنوير (٥٦/٢).

ولمّا كان شأن المؤمنين الرّغبة في الجهاد كان المذكور مع استئذان المؤمنين، في الآية أن يجاهدوا دون أن لا يجاهدوا، إذ لا يليق بالمؤمنين الاستئذان في ترك الجهاد، فإذا انتفى أن يستأذنوا في أن يجاهدوا ثبت أنّهم يجاهدون دون استئذانٍ، وهذا من لطائف بلاغة هذه الآية الّتي لم يعرّج عليها المفسّرون وتكلّفوا في إقامة نظم الآية.

وجملة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ معترضةٌ لفائدة التّنبيه على أنّ اللّه مطّلعٌ على أسرار المؤمنين إذ هم المراد بالمتّقين كما تقدّم في قوله في سورة البقرة [٢، ٣] هدىً للمتّقين الّذين يؤمنون بالغيب"(١).

الدراسة:

ذكر ابن عاشور بيان الاستئذان المرغوب فيه عند المؤمنين، وذكر أيضاً أن هذا من اللطائف البلاغية التي لم يتعرض لها المفسرون، وعند النظر تبين أن هناك عدداً من المفسرين تعرضوا لهذه اللفتة، وأشاروا إليها، ومنهم:

قال الواحدي (ت ٤٦٨هـ): "قال أصحاب الحقائق: ليست هذه الآية على ظاهرها؛ لأن ترك الاستئذان عن الإمام في الجهاد مذموم، وهؤلاء محمودون في هذه الآية بترك الاستئذان، وهاهنا إضمار وهو أحد شيئين: أحدهما: أن يكون التقدير: لا يستأذنك هؤلاء أن يجاهدوا فحذف (لا)، والثاني: لا يستأذنك هؤلاء كراهية أن يجاهدوا، وقد ذكرنا نحو هذا في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ [النساء: ١٧٦] وفي غيره من المواضع، والذي دل على هذا المحذوف ذم المنافقين وسياق القصة، وهو قوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ إنما كان ذلك إذنًا في القعود عن الجهاد لا في الجهاد، ويدل

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٠/١٠٨).

عليه أيضًا ما بعده من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤٣]؛ أي في القعود عن الجهاد.

وقال صاحب النظم: ظاهر نظم هذه الآية والتي بعدها يوهم أن الاستئذان في الجهاد مذموم، وهذا غير سائغ في المعنى؛ لأن الذم إنما وقع على من يستأذن في القعود عن الجهاد، فالتأويل: لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر في القعود عن الجهاد، فجاء هذا النظم على سبق العلم من الجميع إلى أنه لا يقع الذم في مثل هذا إلا على من يستأذن في ترك الجهاد والقعود عنه"(١).

وقال الزمخشري (ت ٥٣٨هـ): "ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا، وكان الخلص من المهاجرين والأنصار يقولون: لا نستأذن النبي أبداً، ولنجاهدنّ أبداً معه بأموالنا وأنفسنا، ومعنى أن يجاهدوا في أن يجاهدوا، أو كراهة أن يجاهدوا"(٢).

وقال ابن عطية (ت ٥٤٦هـ): "على معنى لا يحتاجون إلى أن يستأذنوا في أن يجاهدوا بل يمضون قدما، أي فهم أحرى ألا يستأذنوا في التخلف، ثم أخبر بعلمه تعالى بالمتّقين وفي ذلك تعيير للمنافقين وطعن عليهم بين"(٣).

وقال الرازي (ت ٦٠٦هـ): "المسألة الثّانية: قوله: لا يستأذنك الّذين يؤمنون باللّه واليوم الآخر أن يجاهدوا فيه محذوفٌ، والتّقدير: في أن يجاهدوا إلّا أنّه حسن الحذف لظهوره، ثمّ هاهنا قولان:

(١) انظر: التفسير البسيط، للواحدي (٤٥٩/١٠).

(٢) انظر: الكشاف، للزمخشري (٢٦٢/٢).

(٣) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (٥٠٨/٦).

القول الأوّل: إجراء هذا الكلام على ظاهره من غير إضمارٍ آخر، وعلى هذا التّقدير فالمعنى أنّه ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا، وكان الأكابر من المهاجرين والأنصار يقولون لا نستأذن النّبيّ ﷺ في الجهاد، فإنّ ربّنا ندبنا إليه مرّةً بعد أخرى، فأيّ فائدةٍ في الاستئذان؟ وكانوا بحيث لو أمرهم الرّسول بالقعود لشقّ عليهم ذلك، ألا ترى أنّ عليّ بن أبي طالبٍ لمّا أمره رسول اللّه ﷺ بأن يبقى في المدينة شقّ عليه ذلك ولم يرض إلى أن قال له الرّسول: "أنت منّي بمنزلة هارون من موسى".

القول الثّاني: أنّه لا بدّ هاهنا من إضمار آخر، وقالوا لأنّ ترك استئذان الإمام في الجهاد غير جائزٍ، وهؤلاء ذمّهم اللّه في ترك هذا الاستئذان، فثبت أنّه لا بدّ من الإضمار، والتّقدير: لا يستأذنك هؤلاء في أن لا يجاهدوا، إلا أنه حذف حرف النفي، ونظير قوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ [النساء: ١٧٦]، والّذي دلّ على هذا المحذوف أنّ ما قبل الآية وما بعدها يدلّ على أنّ حصول هذا الذّمّ إنّما كان على الاستئذان في القعود واللّه أعلم"(١).

وقال البيضاوي (ت ٦٨٥هـ): "أي ليس من عادة المؤمنون: أن يستأذنوك في أن يجاهدوا فإن الخلص منهم يبادرون إليه ولا يتوقفون على الاذن فيه فضلًا أن يستأذنوك في التخلف عنه، أو أن يستأذنوك في التخلف كراهة أن يجاهدوا"(٢).

وقال أبو حيان (ت ٧٤٥هـ): "وقال الجمهور: ليس كذلك، لأنّ ما قبل هذه الآية وما بعدها ورد في قصّة تبوك، والظّاهر أنّ متعلّق الاستئذان

(١) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي (٦٠/٦).

(٢) انظر: أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤٠٧/١).

هو أن يجاهدوا أي: ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا، وكان الخلّص من المهاجرين والأنصار لا يستأذنون النّبيّ ﷺ أبدًا، ويقولون: لنجاهدنّ معه بأموالنا وأنفسنا.

وقيل: التّقدير لا يستأذنك المؤمنون في الخروج ولا القعود كراهة أن يجاهدوا، بل إذا أمرت بشيءٍ ابتدروا إليه، وكان الاستئذان في ذلك الوقت علامةً على النّفاق"(١).

وقال العليمي (ت ٩٢٨هـ): "أي: لا يوقفونه على الإذن، فضلًا أن يستأذنوك في التخلّف كراهة أن يجاهدوا"(٢).

وقال القاسمي (ت ١٣٣٢هـ): "أي لأنهم يودون الجهاد بها قربة، فيبذلونها في سبيله"(٣).

٣ – قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [التوبة: ٦١].

قال ابن عاشور: "وجملة: ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ جملة قل مستأنفة استينافا ابتدائيا، على طريقة المقاولة والمحاورة، لإبطال قولهم بقلب مقصدهم إغاظة لهم، وكمدا لمقاصدهم، وهو من الأسلوب الحكيم الذي يحمل فيه المخاطب كلام المتكلم على غير ما يريده، تنبيها له على أنه الأولى بأن يراد، وقد مضى عند قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّۗ ﴾ [البقرة: ١٨٩] ومنه ما جرى بين الحجاج والقبعثري؛ إذ قال له الحجاج متوعداً إياه: «لأحملنك على الأدهم (أراد لألزمنك القيد لا

(١) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان (٢٩٢/١١).

(٢) انظر: فتح الرحمن في تفسير القرآن، للعليمي (١٩١/٣).

(٣) انظر: محاسن التأويل، للقاسمي (٢٢٢/٨).

تفارقه) فقال القبعثرى: «مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب» فصرف مراده إلى أنه أراد بالحمل معنى الركوب وإلى إرادة الفرس الذي هو أدهم اللون من كلمة الأدهم. وهذا من غيرة الله على رسوله عليه الصلاة والسلام، ولذلك لم يعقبه بالرد والزجر، كما أعقب ما قبله من قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي﴾ [التوبة: ٤٩] . إلى هنا بل أعقبه ببيان بطلانه فأمر النبيء صلى الله عليه وسلم بأن يبلغهم ما هو إبطال لزعمهم من أصله بصرف مقالتهم إلى معنى لائق بالرسول، حتى لا يبقى للمحكي أثر، وهذا من لطائف القرآن"(١).

الدراسة:

قال السمعاني: "يعني هذه الخلة "خير لكم"، فكأنه قال: مستمع خيرٍ خيرٌ لكم، ومستمع شرٍ شرٌ لكم"(٢).

وقال العليمي: "أي إذا كان كما تقولون فهو خير لكم"(٣).

وقال الزمخشري: "الأذن: الرجل الذي يصدق كل ما يسمع، ويقبل قول كل أحد، سمى بالجارحة التي هي آلة السماع، كأنّ جملته أذنٌ سامعة، ونظيره قولهم للربيئة: عين. وإيذاؤهم له: هو قولهم فيه هُوَ أُذُنٌ. وأذن خير، كقولك: رجل صدق، تريد الجودة والصلاح. كأنه قيل: نعم هو أذن ولكن نعم الأذن. ويجوز أن يريد: هو أذن في الخير والحق وفيما يجب سماعه وقبوله، وليس بأذن في غير ذلك ودلّ عليه قراءة حمزة وَرَحْمَةٌ بالجرّ عطفاً عليه أى: هو أذن خير ورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله. ثم فسر كونه أذن خير بأنه يصدق بالله، لما قام عنده من الأدلة ويقبل من المؤمنين الخلص من المهاجرين والأنصار، وهو رحمة لمن آمن منكم، أى أظهر الإيمان أيها

(١) التحرير والتنوير (١٠/١٣٤).

(٢) انظر: تفسيره (٢/٣٢٢).

(٣) انظر: تفسيره (٢/٣٢٢).

المنافقون حيث يسمع منكم ويقبل إيمانكم الظاهر، ولا يكشف أسراركم ولا يفضحكم، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين، مراعاة لما رأى الله من المصلحة في الإبقاء عليكم، فهو أذن كما قلتم، إلا أنه أذن خير لكم لا أذن سوء فسلم لهم قولهم فيه، لا أنه فسر بما هو مدح له وثناء عليه، وإن كانوا قصدوا به المذمّة والتقصير بفطنته وشهامته، وأنه من أهل سلامة القلوب والغرّة"(١).

وقال القاسمي: "في قوله تعالى: قل ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ أبلغ أسلوب في الرد عليهم، فإنه صدقهم في كونه أذنا، إلا أنه فسره بما هو مدح له، وثناء عليه، قال الناصر: لا شيء أبلغ من الردّ عليهم بهذا الوجه، لأنه، في الأول، إطماع لهم بالموافقة، ثم كرّ على طمعهم بالحسم، وأعقبهم في تنقصه باليأس منه، ويضاهي هذا، من مستعملات الفقهاء، القول بالموجب، لأن في أوله إطماعا للخصم بالتسليم، ثم بتّا للطمع على قرب، ولا شيء أقطع من الإطماع ثم اليأس يتلوه ويعقبه، والله الموفق"(٢).

٤ – **قال تعالى:** ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [التوبة: ٦٦].

قال ابن عاشور: "﴿ قَدْ كَفَرْتُم ﴾يدل على وقوع الكفر في الماضي، أي قبل الاستهزاء، وذلك أنه قد عرف كفرهم من قبل. والمراد بإسناد الإيمان إليهم: إظهار الإيمان، وإلا فهم لم يؤمنوا إيمانا صادقا. والمراد بإيمانهم: إظهارهم الإيمان، لا وقوع حقيقته. وقد أنبأ عن ذلك إضافة الإيمان إلى ضميرهم دون تعريف الإيمان باللام المفيدة للحقيقة، أي بعد إيمان هو من شأنكم، وهذا تعريض بأنه الإيمان الصوري غير الحق ونظيره قوله تعالى

(١) انظر: تفسيره (٢/٢٧١).

(٢) انظر: تفسيره (٨/٢٤٩).

الآتي ﴿وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ [التوبة: ٧٤] وهذا من لطائف القرآن"[١].

الدراسة:

قال السمعاني: "قد كفرتم بعد إيمانكم، وهم لم يكونوا مؤمنين، الجواب عنه أن معناه أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان"[٢]، وكذا قال البغوي[٣].

وقال ابن الجوزي: "أنه قد ظهر كفركم بعد إظهاركم الإيمان، وهذا يدل على أن الجو واللعب في إظهار كلمة الكفر سواء"[٤].

وقال العليمي: "بعد إيمانكم، بعد إظهاركم الإيمان"[٥].

وقال ابن عطية: "المعنى قل لهم يا محمد: "لا تعتذروا" على جهة التوبيخ، كأنه قال: لا تفعلوا ما لا ينفع، ثم حكم عليهم بالكفر، فقال لهم: قد كفرتم بعد إيمانكم، الذي زعمتموه ونطقتم به"[٦].

٥ – قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٠ ﴾ [التوبة: ٩٠].

قال ابن عاشور: "وعلى الوجهين في التفسير يختلف التقدير في قوله: "المعذرون" فإن كانوا المحقين في العذر فتقدير المعذرون أن أصله المعتذرون، من اعتذر أدغمت التاء في الذال لتقارب المخرجين لقصد التخفيف، كما أدغمت التاء في الصاد في قوله: ﴿ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩]؛ أي يختصمون.

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/١٤٢).

(٢) انظر: تفسيره (٢/٣٢٤).

(٣) انظر: تفسيره (٤/٧٠).

(٤) انظر: تفسيره (٣/٤٦٥).

(٥) انظر: تفسيره (٣/٢١١).

(٦) انظر: تفسيره (٦/٥٥٦).

وإن كانوا الكاذبين في عذرهم فتقدير المعذرون: أنه اسم فاعل من عذر بمعنى تكلف العذر فعن ابن عباس: لعن الله المعذرين. قال الأزهري: ذهب إلى أنهم الذين يعتذرون بلا عذر فكأن الأمر عنده أن المعذر بالتشديد هو المظهر للعذر اعتلالا وهو لا عذر له اه. وقال شارح «ديوان النابغة» عند قول النابغة:

ودع أمامة والتوديع تعذير؛ أي لا يجد عذرا غير التوديع.

ويجوز أن يكون اختيار صيغة المعذرين من لطائف القرآن لتشمل الذين صدقوا في العذر والذين كذبوا فيه"[١].

الدراسة:

سنتناول المعنى الذي ذكره ابن عاشور من عدة وجوه:

الوجه الأول: القراءات في لفظ "المعذرون"، فقد اختلف القراء فيها على عدة قراءات:

القراءة الأولى: قراءة الجمهور "المُعَذِّرون" بفتح العين وتشديد الذال وكسرها.

القراءة الثانية: قرأ يعقوب "المُعْذِرون" بإسكان العين وتخفيف الذال.

وهما قراءاتان متواترتان[٢]، وما بعد ذلك فهي قراءات شاذة.

القراءة الثالثة: قرأ قتادة "المُعَذَّرون" بفتح العين وتشديد الذال المفتوحة.

القراءة الرابعة: قرأ مسلمة " المُعَذَّرون" بتشديد العين والذال.

القراءة الخامسة: قرأ السدي "المُعْذَرون" بفتح الذال.

القراءة السادسة: قرأ سعيد بن جبير وابن مسعود "المُعْتَذِرون" بالتاء.

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/١٧٧).

(٢) انظر: جامع البيان، للداني (٣/١١٥٥)، التبصرة، للخياط (ص٢٨٨)، تحبير التيسير، لابن الجزري (ص٣٩٢).

القراءة السابعة: قرأ ابن أبي ليلى وابن السميفع "المعاذرون"[١].

الوجه الثاني: اختلف في صفة هؤلاء القوم الذين وصفهم الله بأنهم جاءوا الرسول صلى الله عليه وسلم على قولين:

القول الأول: أنهم المعتذرون بحق، اعتذروا به فعذروا، قاله ابن عباس، وهو تأويل من قرأها بالتخفيف، ويدل على ذلك أيضاً أنه تعالى لما ذكرهم قال بعدهم: "وقعد الذين كذبوا الله ورسوله"، فلما ميزهم عن الكاذبين دل ذلك على أنهم ليسوا بكاذبين.

القول الثاني: هم المقصرون المعتذرون بالكذب، قاله الحسن، وتأويل من قرأها بالتشديد[٢].

القول الثالث: المعذرون من يعذر وليس بجاد، إنما يعرض بما لا يفعله، أو يظهر غير ما في نفسه[٣].

وقد رجح القول الأول ابن عطية والرازي، وقال بالأول والثاني الطبري، ولعل الأقوال الثلاثة كلها محتملة[٤].

الوجه الثالث: وهذا الوجه ينبني على الوجه الذي قبله، فعلى الوجوه الثلاثة في التفسير اختلف التقدير في قراءة "المعذِّرون" بالتشديد؛ حيث إن لها وجهين في العربية والتأويل:

الأول: ما ذكره الفراء[٥]، والزجاج[٦]، وابن الأنباري[٧]، وهو أن الأصل في هذا اللفظ عند النحويين "المعتذرون"، فتحولت فتحة التاء إلى

(١) مختصر ابن خالويه (ص٥٤)، إعراب القراءات الشواذ، للعكبري (٦٢٨/١).

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري (٦٢١/١١)، النكت والعيون للماوردي (٣٩١).

(٣) انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة (١٦/١).

(٤) انظر: تفسير ابن عطية (٥٩٧/٦)، تفسير الرازي (١٢٠/٦)، تفسير الطبري (٦٢٢/١١).

(٥) انظر: معاني القرآن (٤٤٧/١).

(٦) انظر: معاني القرآن وإعرابه (٤٦٤/٢).

(٧) انظر: كتاب الأضداد (ص٣٢١).

العين، وأبدلت الدال من التاء، وأدغمت في الذال التي بعدها، فصارتا ذالاً مشددة لتقارب مخرج إحداهما من الأخرى، والاعتذار في كلام العرب على قسمين، يقال: "اعتذر"، إذا كذب في عذره، قال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾، فدل على فساد عذرهم بقوله: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا﴾ [التوبة: ٩٤]، ويقال: اعتذر، إذا جاء بعذر صحيح فتوجه معنى الاعتذار إلى الإعذار، فتقول: اعتذر فلان في كذا يعني أعذر، ومنه قول لبيد:

إلى الحول ثم إن السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر(١)

فقال: فقد اعتذر بمعنى فقد أعذر.

الثاني: أن يكون "المعذرون" على مفعلين من التقدير الذي هو التقصير، وقد ضعف هذا الوجه الطبري، قال: فليس في الفريقين موصوف بالتعذير"(٢).

٦ – قال تعالى: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾ [الإسراء: ٩١].

قال ابن عاشور: "وذكر المفعول المطلق بقوله: تفجيرا للدلالة على التكثير لأن تفجر قد كفى في الدلالة على المبالغة في الفجر، فتعين أن يكون الإتيان بمفعوله المطلق للمبالغة في العدد، كقوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦] ، وهو المناسب لقوله: خلالها؛ لأن الجنة تتخللها شعب النهر لسقي الأشجار. فجمع الأنهار باعتبار تشعب ماء النهر إلى شعب عديدة. ويدل لهذا المعنى إجماع القراء على قراءة فتفجر هنا بالتشديد مع اختلافهم في الذي قبله. وهذا من لطائف معاني القراءات المروية عن

(١) انظر: ديوانه (ص٢١٤).

(٢) تفسيره (٦٢٢/١١).

النبيء صلى الله عليه وسلم فهي من أفانين إعجاز القرآن"[١].

الدراسة:

قال البغوي: "واتفقوا على تشديد قوله: ﴿ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾؛ لأن الأنهار جمع، والتشديد يدل على التكثير، ولقوله: "تفجيرا" من بعد[٢].

وقال ابن عادل الحنبلي: "ولم يختلفوا في الثانية أنها بالتثقيل للتصريح بمصدرها، فمن ثقل أراد كثرة الانفجار من الينبوع، وهو وإن كان واحداً فلكثرة الانفجار فيه فيحسن أن يثقل كما تقول: ضرَّب زيد، إذا كثر الضرب منه، لكثرة فعله، وإن كان الفاعل واحداً"[٣].

وقال الرازي: "ولم يختلفوا في الثانية مشددة لأجل الأنهار؛ لأنها جمع، يقال: فجرت الماء فجراً، وفجرته تفجيراً"[٤].

وقال ابن عطية: "وقوله تعالى: ﴿ فَتُفَجِّرَ ﴾، تضعيف مبالغة لا تضعيف تعدية، كقوله: ﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ ﴾ [يوسف: ٢٣]" [٥].

وقال أبو عمرو الداني: "وأجمعوا على التشديد في قوله: ﴿ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾ من أجل قوله: "تفجيرا""[٦].

وقال أبو علي الفارسي: "لأن فجّرت الأنهار مثل: ﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ ﴾ ، فلذلك اتفق الجميع على التثقيل في "تفجّر""[٧].

---

(١) التحرير والتنوير (١٦٤/١٤).

(٢) تفسيره (١٢٨/٥).

(٣) تفسيره (٣٨٤/١٢).

(٤) تفسيره (٤٠٨/٧).

(٥) تفسيره (١٩٤/٩).

(٦) انظر: جامع البيان (١٢٩٤/٣).

(٧) الحجة في علل القراءات السبع (٤١٨/٣).

وقال مكي: "وذلك لما كان الينبوع الذي سألوه واحداً، خالف قوله: ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾ لكون الأنهار كثيرة، فوجب تخفيف الأول لما أتى بعده من التوحيد، تشديد الثاني لما أتى بعدده من الكثرة"(١).

٧ – **قال تعالى:** ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [ص: ٢٥].

قال ابن عاشور: "واسم الإشارة في قوله: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ ﴾ إلى ما دلت عليه خصومة الخصمين، وهذا من لطائف القرآن؛ إذ طوى القصة التي تمثل له فيها الخصمان، ثم أشار إلى المطوي باسم الإشارة"(٢).

الدراسة:

قال أبو حيان: "والذي نذهب إليه ما دل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين المحراب كانوا من الإنس، دخلوا عليه من غير المدخل، وفي غير وقت جلوسه للحكم ... ولم يتقدم سوى قوله: ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ ﴾"(٣).

وقال العثيمين: "أي أننا غفرنا لداود ذلك الذي وقع منه، وهي الفتنة التي افتتن بها"(٤).

وقال الزجاج: "فغفرنا له ذلك؛ أي ذلك الذنب"(٥).

وقال السعدي: "فغفرنا له ذلك الذي صدر منه، وأكرمه الله بأنواع الكرامات، وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه الله

(١) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها (٢/٥١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/١٢٠).

(٣) تفسيره (١٨/٢٢٧).

(٤) تفسير سورة ص (١١٣) .

(٥) معاني القرآن وإعرابه (٤/٢٥٠).

علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها"(١).

٨ – **قال تعالى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الممتحنة: ١٠].

قال ابن عاشور: "المراد بـ"ما أنفقوا" ما أعطوه من المهور، والعدول عن إطلاق اسم المهور والأجور ... فألغي إطلاق اسم المهور على ما يدفع لهم"(٢).

الدراسة:

لم يختلف المفسرون في أن المراد بالنفقة هنا المهر.

ولذا قال الطبري: "وقوله: "وآتوهم ما أنفقوا" يقول جل ثناؤه أعطوا المشركين الذي جاءكم نساؤهم مؤمنات إذا علمتوهن مؤمنات فلم ترجعوهن إليهم ما أنفقوا في نكاحهم إياهن من الصداق"(٣).

٩ – **قال تعالى:** ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الجمعة: ٥].

قال ابن عاشور: "وإطلاق الحمل وما تصرف منه على هذا المعنى استعارة، بتشبيه إيكال الأمر بحمل الحمل على ظهر الدابة، وبذلك كان

(١) انظر: تفسيره (ص٧١٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٤١/٢٨).

(٣) تفسيره (٨٥/١٤).

تمثيل حالهم بحال الحمار يحمل أسفارا تمثيلا للمعنى المجازي بالمعنى الحقيقي. وهو من لطائف القرآن"[١].

الدراسة:

قال الرازي: "وقال أهل المعاني: هذا المثل مثل من يفهم معاني القرآن ولم يعمل به، وأعرض عنه إعراض من لا يحتاج إليه، وإن رعاية الألفاظ والمناسبة بينها من اللوازم في الكلام، وبين لفظي الأسفار والحمار مناسبة لفظية لا توجد في الغير من الحيوانات، فيكون ذكره أولى"[٢].

وقال القرطبي: "شبههم والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها بالحمار يحمل كتباً، وليس له إلا ثقل الحمل من غير فائدة"[٣].

وقال الواحدي: "فشبههم والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها بالحمار يحمل كتباً وليس له من ذلك إلا ثقل الحمل من غير انتفاع بمعاني ما حمل، كذلك اليهود ليس لهم من كتابهم إلا وبال الحجة عليهم، ثم ذم هذا المثل والمراد به ذمهم"[٤].

قال القونوي: "وجه الشبه والتشبيه تشبيه الهيئة بالهيئة، هذا حالهم في الدنيا وأما في الآخرة فلا يعرف كنه ما أصابهم والحمار أحسن حالاً منهم"[٥].

وقال ابن عجيبة: "وجه الشبه حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمل التعب في استصحابه"[٦].

---

(١) التحرير والتنوير (١٩٢/٢٨).

(٢) انظر: تفسيره (٤٥٠/١٠).

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٤٥٨/٢٠).

(٤) انظر: البسيط (٤٥٠/٢١).

(٥) انظر: حاشية القونوي (٨٥/١٩).

(٦) انظر: تفسيره (٤٢/٨).

الخاتمة

وبعد جهد المقل حول ما كتبه ابن عاشور في لطائف القرآن وما اشتملت عليه من معانٍ، أضع النقاط التالية التي تبين أهم ما توصلت إليه:

١. أن المراد بلطائف القرآن هي مفردات قرآنية تحمل معانٍ خفية.
٢. أن لطائف القرآن عند ابن عاشور تنوعت باختلاف السياق القرآني.
٣. أن بعض لطائف القرآن لم تبرز إلا عند ابن عاشور في تفسيره.

هذا وأحمد الله سبحانه أولاً وآخراً، وأسأله سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

١. البحر المحيط في التفسير، المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠هـ.

٢. التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.

٣. التّفسير البسيط، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، المحقق: أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، الناشر: عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ.

٤. تفسير الماوردي = النكت والعيون، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبدالرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان.

٥. الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.

٦. اللباب في علوم الكتاب، المؤلف: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ)، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

٧. محاسن التأويل، المؤلف: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨هـ.

٨. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المؤلف: أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، المحقق: عبدالسلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢هـ.

٩. معاني القرآن وإعرابه، المؤلف: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

١٠. مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠هـ.

١١. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المؤلف: عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

١٢.جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

١٣.الحجة في القراءات السبع، المؤلف: الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبدالله (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: د. عبد العال سالم مكرم، الأستاذ المساعد بكلية الآداب - جامعة الكويت، الناشر: دار الشروق - بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤٠١هـ.